تراث هندسي

المنشآت الحربية في سلطنة عمان

تتميز سلطنة عمان بموقع جغرافي فريد ، فهي تقع على الخليج العربي وبحر العرب ، مما جعلها على اتصال دائم بكافة الشعوب المجاورة ، وعلى تواصل مع الحضارات القريبة ، إضافة إلى كونها ممراً للسفن الواردة من شتى أنحاء العالم إلى منطقة الخليج ، والسفن الخليجية المنطلقة إلى مناطق مختلفة .

وقد شهدت السلطنة على مر التاريخ معارك حربية عدة ، وكانت أرضها صراعاً في بعض الأحيان بين الحضارتين الرومانية والفارسية ، وقد اضطرها ذلك إلى بناء تحصينات عدة (كالقلاع والأسوار والأبراج) لحماية مناطقها الداخلية من العدوان ، وردع كل من يفكر في التعدي على أراضيها ومحاولة احتلالها .

والناظر في جغرافيا عمان يجد أنها تحوي عدداً كبيراً من الأسوار والأبراج والقلاع التي أنشئت لهذه الغاية ، وما زال بعضها شاهداً حتى الآن على براعة الإنسان العماني الذي استوحى الطراز المعماري من بيئته ، واستفاد من المواد التي حوتها أرضه في بناء هذه المعالم والتحصينات الحربية .

ويلاحظ أن هذه المنشآت الحربية العمانية أقيمت على السواحل من جهة أو في المراكز الحيوية للمدن المزدحمة من جهة أخرى ، وذلك حتى

تكون عيناً ساهرة ومتيقظة لمراقبة ما يحيط بها وتكون رمزاً القوة الزعامة .

وأحصى أحد الكتب المعمارية الحديثة وجود ٥٠٠ عمارة من عمارات سلطنة عمان التي كانت تستخدم للشؤون الحربية ، معظمها أسوار مدن من اللبن ومبانٍ من الحجر للمجاري المائية المعروفة بالأفلاج ثم الأبراج والقلاع والمناظر والحصون .

ويمكن تناول هذه المنشآت من خلال أربعة أنواع :

١ـ الأسوار :

تنشأ الأسوار عادة حول المدن لحمايتها من الهجمات الخارجية وتمكين أهلها من الدفاع من خلال فتحات وأبراج توضع في مناطق مختارة من الأسوار ، وهي طريقة اتبعت في كثير من المدن في العصور القديمة والوسطى .

وقد شهدت عدة مدن عمانية بناء أسوار عبر فترات مختلفة ، وأشهر هذه الأسوار تلك التي كانت محيطة بمدينة مسقط ، والتي اعتبرت خط الدفاع الأول بالنسبة إلى تحقيق المدينة وحمايتها .

وكانت هذه الأسوار تحيط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم إلا من الجانب الشرقي حيث تتكفل الجبال الشاهقة بهذه المهمة ، ويتخلل هذه الأسوار أبراج مستديرة الشكل يبعد كل منها عن الآخر ٣٠٠ متر .

ويبلغ طول ضلع الأسوار الغربية للمدينة قرابة ٦٠٠ متر ، فيما يبلغ طول الضلع عند الجنوب نحو ٢٠٠ متر ، ثم تمتد الأسوار باتجاه الشرق بطول ١٣٠٠متر .

وتحوي هذه الأسوار على ثلاثة مداخل : **أحدها** : يقع في الركن

الغربي أسفل قلعة (المرياني) ويدعى (باب المثاعيب) ، ويتكون هذا الباب من صف من فتحات حديدية صغيرة خلفية .

وفي المدخل الثاني يمر الوادي الكبير إلى الشاطئ ، وعند نهاية الضلع الغربي يوجد مدخل رئيسي يعرف (بالباب الكبير) .

ويقع المدخل الثالث في منتصف الضلع الجنوبي ، وهو مدخل رئيسي مماثل للمدخل الرئيسي الكبير ، ويعرف باسم (المدخل الصغير) .

وتحتوي أسوار مسقط على عدد من الدهاليز والممرات في الطابق الأول ، تسمح بوجود الجنود لحمايتها والدفاع عن المدينة ضد أي عدو يريد اقتحامها ، أما أعلى الأسوار فتحتوي على ممرات مكشوفة توصل بين الأبراج ، وتتسع للفرسان وهم على صهوة خيولهم للتحرك بسرعة للدفاع عن المدينة .

٢ـ الأبراج :

البرج عبارة عن بناء حربي مربع أو مستدير الشكل يبرز عن سمت الجدار والأسوار ، وتحتوي الأبراج على مساقط Machicouffis ومراقب claeis ومزاغل لرمي السهام ، وتزود أسوار الحصون والقلاع بعدد من الأبراج ، ومن ثم فإن حجمها يكون صغيراً لتعددها .

وقد يحدث أن تكتفي بعض القرى بإقامة برج للمراقبة والدفاع المبدئي ، وفي هذه الحالة يكون البرج كبيراً حتى يتسع لإقامة حامية كبيرة يمكنها صد هجمات الأعداء ، أو على الأقل تعطيل تقدمهم حتى تستعد القلاع والحصون القريبة منها .

وتتكون أبراج عمان عادة من طابقين : الأول منهما مسمط ، أما الثاني فيحتوي على غرف ودهاليز لإقامة الجنود ، كما يوجد في جدران الطابق الثاني للأبراج مزاغل (فتحات لرمي السهام arrow - slits) .

ويعلو الأبراج شرفات كبيرة مستديرة تسمح المسافة بينها لوضع فوهات المدافع أو المكاحل ، ويبلغ عددها ثمانية في سور مسقط .

كما كان الطابق الأول مخزناً للبارود ، فيما كانت المدافع توضع على سطح البرج وأحياناً في الطابق الأرضي .

وكانت هذه الأبراج الموضوعة في الأسوار أو القلاع تضمن مدى كاملاً من النيران ، بما في ذلك إطلاق نيران جانبية مكثفة لحماية الجدار الأضعف من المبنى المركزي المخصص للحامية كما في قصر الإمام .

٣ـ الحصون :

الحصن هو أكبر عمائر الاستحكامات الحربية وإن لم يكن أمنعها ، وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض ليحميها ويحصنها ضد أي اعتداء من داخل البلاد وخارجها ، وقد يكون ساكنو الحصن من الجنود والمدنيين والخلفاء والسلاطين .

وفي سلطنة عمان ظلت الحصون تستخدم مقراً للأئمة والسلاطين حتى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكان الحصن هو مركز الحكم التقليدي ، وكان يحيط به أسوار ضخمة بأبراج شامخة وبوابات يقوم على حراستها جنود مزودون بالأسلحة .

ولما كانت الغاية من إقامة تلك الحصون في عمان التحكم في المنطقة التي تشرف عليها لذا اختير لها في معظم الأحيان ، وخاصة الساحلية منها ، مواقع استراتيجية مهمة ، وأقيمت على الصخور والجبال أو في بقعة ممتازة إذا كانت في واد أو سهل .

وأهم حصون السلطنة حتى وقت قريب كانت في الرستاق وصحار والحزم والميراني والجلالي .

٤ـ القلاع :

تمتاز عمان بعدد كبير من القلاع التي بُنيت من أجل حماية البلاد من الهجمات من داخل عمان وخارجها .

وفي وادي سمايل الذي يعتبر حلقة الاتصال الاستراتيجية بين نزوى والساحل تقع أكبر سلسلة من القلاع في عمان ، وفي الداخل هناك قلاع متناثرة على طول خطوط مركزة أمام الصحراء لاستكمال النظام الدفاعي المعقد .

وقلعة نزوى مثلاً مبنى بسيط يتكون من برج دائري بمثابة منصة منبسطة ، تتكشف أمامها أشجار النخيل التي تزخر بها الواحة ، ويتم العبور إليها من الأرض عن طريق سلم ضيق مظلم على شكل حرف (ح) ، حيث يوجد عند كل منعطف منه باب لعرقلة هجوم محتمل من الأعداء ، وتحمي هذه المنعطفات ثقوب قاتلة تلقى منها قذائف على المهاجمين .

ومنصة القلعة ذات شكل دائري تقريباً ، ومزودة بفتحات للمدافع تضمن إطلاق النار وانتشارها على ٣٦٠ درجة كاملة ، وترتفع الجدران فوق المنصة إلى ارتفاع عشرة أمتار ، وبذلك يستكمل المبنى ، وتتيح منطقة دائرية للمشي للفرسان الذين يستطيعون إطلاق النار من فتحات توفر لهم الحماية .

مميزات معمارية :

ومن أهم المميزات المعمارية لهذه المنشآت الحربية العمانية :

أـ المنشآت الداخلية :

١ـ تقتصر على الصراع والأبراج المرتفعة حتى تستطيع مراقبة العدو

على مسافات بعيدة في عرض البحر قبل اقترابه من الشاطئ .

٢ـ معظمها يوجد على الجبال والصخور العالية ذات الموقع الاستراتيجي المميز .

٣ـ جميع المنشآت الحربية الساحلية مبنية بالحجر الصلد ، وكثيراً ما تكسوها طبقة سميكة من الجص ، لأن العوامل المناخية تجبر السكان على استخدام مواد مقاومة لها .

٤ـ يقل استخدام الساقطات في القلاع والأبراج الساحلية ، خاصة المتمركزة في أعالي الجبال ، لأن مهمة الساقطات صب المواد الحارقة على العدو لدى اقترابه من أسوار القلعة .

٥ ـ توجد المزاغل في الطابق العلوي من أبراج السواحل حتى تستطيع إصابة السفن على مسافات بعيدة .

ب ـ المنشآت الخارجية :

١ـ حصون تتوسط المدن والقرى وتحيط بها الأسوار .

٢ـ تتكون الحصون من منشآت حربية كالأبراج والقلاع ومخازن السلاح .

٣ـ تبنى الحصون الداخلية ولاسيما في المناطق الحارة من الطوب (اللبن) ، لأنه أكثر ملاءمة من الأحجار المعرضة للتصدع بفعل الحرارة .

٤ـ تكثر الساقطات والفتحات خلف عقود المداخل الرئيسية للأسوار ، وذلك لصب المواد الحارقة على العدو .

٥ـ وجود المزاغل في الطابق الثاني من أبراج الحصون .

لقد تم اختيار وبناء هذه المنشآت الحربية بحيث تؤدي الأغراض منها

بالصورة المثلى ، وتم اللجوء إلى المواد المحلية في إنشائها مع الأخذ بالاعتبار الموقع والعوامل الجوية المؤثرة والهدف من المنشأة ، وهذه الأمور تدل دلالة قاطعة على الحسِّ الهندسي المتميز الذي كان يتمتع به أبناء سلطنة عمان ، وعبقريتهم الفذة في إنشاء مبان ومنشآت تحمي بلادهم وترد أعداءهم .

* * *